١

الفرنسية

سوزان طه حسين

... ومع ذلك، فإنه لا يكاد يمضى وقت حتى تعود إلى أهلها، فتعرض عليهم قضية اقترانها بهذا الشاب الكفيف فتجيئها الردود بشدة:

- كيف؟ من أجنبى؟ وأعمى؟ وفوق ذلك كله مسلم؟!

لا شك أنك جننت تمامًا؟

وتنصرف سوزان وهى تتمتم: ربما كان الأمر جنونًا

ويكون على سوزان أن تقترب أكثر من عم لها (قسيس) وتفضى إليه بذات نفسها، ويكون على العم أن يتروى قليلاً، ولا يلبث أن يعلن لها بالموافقة..

وإلى هنا، والقصة عادية، لا تحمل ملامح تلفت النظر، قصة فتى كفيف يطلب يد فتاة، وتنصرف هى بعد هول المفاجأة إلى أهلها، فيتهمونها بالجنون، غير أن عمها يشجعها على ذلك آخر الأمر..

والواقع أن (الجنون) الذى تردد هنا يطوى أشياء كثيرة، ذلك لأن دراسة الاستشراق فى القرن الثامن عشر يلقى بعض الضوء على تلك القصة العادية فينير بعض جوانبها..

وبعيدًا عن شرح فكرة الاستشراق فى ذلك الوقت، فإننا نستطيع أن نقول: إن هذا القرن (الثامن عشر)، وقد كان قرن العلم زمنيًا دون شك، وأن مؤثراتها كانت تمتد إلى بدايات القرن العشرين.. هذا القرن شهد نمو تيارات كثيرة كانت تحدد نظرة الغرب إلى الشرق..

إن أفكار الرحالة مثل لين وفلوبير ورينان كانت تشير إلى أن الغرب أسمى من الشرق سواء فى تعاليمه أم أفكاره أم تقدمه..

كما أن تطور التاريخ الحربى بين الشرق والغرب وامتداده وتمثله الآن فى بقايا الدولة العثمانية، كان يحمل صورة للعربى الهمجى، الغادر، الذى اختلطت فيه فكرة الدجل والوحشية والعدوان، ويقول لنا هنا إدوارد سعيد: إن السبيل إلى الثروات الهندية (الشرقية) كان يقتضى دائمًا المرور أولا عبر الأقاليم الإسلامية، كما كان يقتضى تحمل التأثير الخطر للإسلام، من حيث هو نظام من المعتقدات شبه آرى. وكان النجاح على الأقل، خلال معظم القرن الثامن عشر، حليف بريطانيا وفرنسا، وكانت الإمبراطورية العثمانية قد استقرت منذ زمن طويل فى وضع من

obeikandi.com

الهرَم المريح (بالنسبة لأوروبا) وهو ما يسمى فى القرن التاسع عشر (المسألة الشرقية)، وقد كانت محاولات الباحثين أو الرحالة الأوربيين حينئذ تسعى إلى غزو الشرق لتعريته من حجبه...

كانت فرنسا قد سيطرت على الاستشراق فى هذه الفترة التى تزوج فيها طه حسين بسوزان، ومن ثم، وجد المناخ ملائمًا تمامًا لمواصلة الحركات الاستعمارية لغزو الشرق، وأن تقدم هذا كله صورا من التبشير قصد به فى الظاهر الثقافة وفى الباطن استكمال رسالة الغرب بالسيطرة على الشرق، ولم يكن بعيدًا عن أفهام رجال الدين، خاصة، جريجورى العاشر بارتداد المغول إلى المسيحية..

المهم أن الروح التبشيرية كانت قد نمت ووجدت لها مساحات شاسعة فى أفئدة رجال الدين ذوى الميول الغربية...

فى هذا المناخ، كان توق العم (القسيس) عارمًا فى أن تذهب ابنة الأخ لتوالى السيطرة على الجانب المثقف من الحضارة الإسلامية فى مصر وهذا يغذى فكرة الأحلام الرومانسية لرجال الأكليروس الغربيين منذ الحروب الصليبية، ربما، لإعادة السيطرة على الآخر (الشرق الآن)، ولم تكن المصادفة قط أن يكون العم (قسيسًا)، ولم تكن من المصادفة أن يتمسك العم، ومن ثم، ابنة الأخ بأن يتم الزواج فى كنيسة بفرنسا، ولم يكن مصادفة قط أن تظل سوزان على عقيدتها المسيحية فلا تتردد فى البوح بها بعد أن عادت إلى مصر وإعلانها من آن لآخر..

(كانت الفتاة الآتية من جنوب فرنسا – حيث درجة التدين تصل إلى أقصاها – تدرك أن عليها الآن مهمة يجب القيام بها، وهى مهمة يقف وراءها العم (الرمز الدينى)، والأفكار الغربية المتنامية المشبعة بروح استعمارية (المستشرقين)، وجهات رسمية وغير رسمية لا نعرف حتى الآن مصدرها، لقد كانت تدرك أنها لابد أن تضطلع بهذه المهمة مع كفيف مثقف سوف يكون له – بعد العودة إلى بلاده – شأنٌ كبير.

ومن هنا، لا نتعجب أن تتذكر سوزان، وهى تكتب كتابها (معك) فى السبعينات، عبارة قالتها لها صديقة فى العشرينات، لا نتعجب أن نقرأ لها عبارة كالتالى:

(لقد قالت لى صديقة عزيزة ذات يوم: لقد كان عليك أن تضطلعى بهذه الرسالة)

لقد كانت رسالة تصل إلى حد (الجنون) لكنها تصل بها إلى تخوم (الواجب).. ولهذا لم يطل ترددها أكثر من فصل واحد، عادت بعده لترسل إلى الطالب الكفيف بما يثلج صدره..

الفرنسية أولاً:

وعلى هذا النحو، فإن سوزان، بعد عودتها إلى مصر، لم تنس قط عددًا من الرموز التى كانت تمارسها حرفيًا بشكل دورى، كما أنها لم تتنازل قط عن أى تقليد أو عرف كانت تمارسه هناك فى البلد الأم..

مــن ذلــك، أن زوجة عميد الأدب العربى لم تكن تتحدث قط بالعربية، فعلى رغم أنها قضت فى مصر أكثر من نصف قرن، فإنها لم تسع إلى تعلم العربية، أو – حتى – التعرّف إليها، ويذكر معاصروها، أنها كانت ترفض بإصرار أن يجرها أحد إلى نطق كلمة واحدة بالعربية، وهو ما يفسر أن صديقاتها كن إما فرنسيات فقط، وإما مصريات يجدن التحدث بالفرنسية.

وقد كان من ثمرة ذلك (وما أكثر الثمار الســامة) أن أبناء طه حسين لم يحسنوا العربية بالقدر الكافــى، ومؤنــس – الابن – بوجه خاص، ظل يتحــدث إلى القريبين منه – حتى رحل – عن صعوبة العربية على لسانه، وقد كانت فرنسيته أكثر من عربيته، وهو يبرر ذلك حين يلح البعض فى الدهشة:

– أمى كانت فرنسية

ثم يضيف كاشفًا عن مساحات من الوجه الآخر لزوجة طه حسين:

– لم تكن تحب – أى ســوزان – أن تتكلم غير الفرنســية، ولا تحب أن نتكلم غير الفرنسية بحضورها..

وعلى هذا النحو، كانت الفرنســية الوحيدة فى (رامتان) – لاحظ أن اســم بيت طه حســين رامتان هو اســم عربــى الأصل – لا تتحدث العربية ولا تريد لغيرها مــن الأولاد أو الضيوف أن يتحدث بها.

وإذا وضعنــا فــى الاعتبــار أن اللغة هى مــن أولى الرموز القومية لدى أى شــعب لأدركنا أن الحديث بالفرنســية لمدة نصف قرن يطوى معنى مغايرًا للمعنى الظاهر، فلا يكفى أن نقول إنها فرنســية الأصول، أو إنها الفرنسية الوحيدة فى المنزل، وإنما هو موقف ثابت، يطوى تغايرًا مع الوطن الثانى، ورفضًا للائتلاف معه، وذلك لأن وراء ذلك موقفًا آخر مقصودًا، أو غير مقصود (إذا أحسنا النية) يرفض التقابل مع هذا العالم، الأدنى مرتبة، والأقل عقيدة..

أسلوب الهيمنة:

وعلى رغم من أننا لا نعرف الكثير عن حياة سوزان الخاصة، فإن بعض الملاحظات تشير إلى مؤشر هام فى هذا الصدد..

إذ يبدو أن تأثير ســوزان على طه حســين كان طاغيًا وحادًا، ويصل إلى حد التســلط، ويذكر عدد من العاملين بالتليفزيون، حين ذهبوا للمرة الأخيرة للتســجيل مع طه حســين: كيف كان حضــور الزوجة عاليًــا إلى درجة مخيفة، وكيف أن وجهها المربد فى مواجهة طه حســين قبل التسجيل لم يتغير أبدًا.

ويحكــى عديد من الحاضرين أو المعاصرين لســوزان، القريبين منها، كيف أنها كانت تحيط طه حسين بعنف وقسوة لا مبرر لهما، ومن المحتمل أن بحث طه حسين فى الفترة الأخيرة عن

المال لإرضاء الزوجة كان دافعًا له – ضمن دوافع عديدة – ألا يتعامل مع الحكام الجدد بعد ثورة ١٩٥٢ بقسوة كانت من سمات طه حسين (العنيد) وخاصة قبل الثورة.

وتشير بعض الملاحظات إلى عدد من التصرفات التى سلكها طه حسين فى الفترة الأخيرة من حياته، والتى – فيما يبدو – كان مضطرا إليها تحت إسراف الزوجة، وتمسكها بالسفر (صيفًا) إلى أوربا كل عام، من هذه التصرفات أنه أعاد طباعة عدد من كتبه تحت مسميات أخرى إما فى القاهرة وإما فى بيروت، وعلى سبيل المثال فإن كتابه (فى الصيف) الذى نشر لأول مرة فى القاهرة عام ١٩٣٣ أعيد نشره مع كتاب آخر (رحلة الربيع) بعنوان واحد هو (رحلة الربيع والصيف) فى بيروت عام ١٩٥٧، كذلك أعيد طبع كتاب (الفتنة الكبرى) مع كتب أخرى بعنوان (إسلاميات) عام ١٩٦٧، كذلك فإن كتاب (الوعد الحق) أعيد طبعه مرة أخرى بعنوان (إسلاميات) فى بيروت عام ١٩٦٧، كذلك، كتاب (مرآة الضمير الحديث) أعاد نشره مرة أخرى بعنوان (نفوس للبيع) عام ١٩٥٣، وكتاب (مرآة الإسلام) أعيد نشره فى بيروت عام ١٩٦٧ بعنوان (إسلاميات)..

لقد امتد أسلوب الهيمنة إلى عديد من تصرفات طه حسين فحولتها إلى النقيض، وفى اعتقادنا أن دراسة جادة لم تنشر بعد حول دور الزوجة فى الهيمنة على عميد الأدب العربى، وما استتبع ذلك من تأثير على فكره وليس استجاباته الحياتية فقط.

أين الرسائل :

ومثال ذلك أن طه حسين كانت له علاقات كثيرة ومتشعبة مع عدد كبير من كتاب عصره، ومن يتصفح النسخة الفرنسية من كتاب سوزان (معك) يلحظ نصوصًا كاملة أو شبه كاملة منقولة (بالحرف) من عدد من رسائل طه حسين إليها أو لعديد من رسائل أساطين الشعر والفكر فى عصره إليه..

لسوزان (طه حسين) وجهان:

وجه نعرفه،

وجه آخر لا نعرفه،

الوجه الذى نعرفه هو الوجه المشرق، أو (الملك)، كما يصفه طه حسين فى نهاية الجزء الأول من سيرته (الأيام)، أما الوجه الآخر، فهو الوجه المظلم، أو الجامد الذى يشير عند قليل من التعرف إلى حياة طه حسين الخاصة، والعامة، إلى التعصب والترفع.

وإذا كان طه حسين قد أطلق عليها صفة (الملك) فى سيرته التى كتبها فى أواخر العشرينات من القرن العشرين (تاريخ كتابة الجزء الأول من الأيام). فإنه بين العشرينات حتى الآن؛ مياه كثيرة ألقيت فى طاحونة الحياة تدفع بنا دفعًا إلى إعادة النظر والتأمل.

لقد كان طه حسين فى هذه الفترة المبكرة مازال واقعًا تحت تأثير سوزان، وفى كنفها (وأكاد أقـول تحت سـيطرتها الكاملة)، متحدثًا كثيرًا عن هذا (الدَّيْـن) لها فى الجامعة بباريس أو فى العـودة معـه إلى مصـر (تزوج عام ١٩١٧ عـاد إلى مصر عام ١٩١٩)، وهو ما يشـير إلى أنه كان (مستطيعًا بغيره)، وقد كان هذا الغير منذ هذه الفترة المبكرة هو سوزان فى المقام الأول، فضلا عن إننا لا يمكن أن ننفى إعجابه إلى درجة كبيرة بالحضارة الغربية..

والواقع أننا لا نسـتطيع أن نتتبع بعض ملامح سـوزان طه حسين حين جاءت إلى مصر لأول مرة حزينة لأنها تفقد جنسيتها الفرنسية حتى رحل طه حسين وعندئذ نلمح بعض الصفات التى تزيل عنها صفة الإشراق، وتقلل تلك الهالة التى حاول طه حسين إضفاءها عليها، وساعدها فى ذلك صمتها الطويل..

لقد كان هذا الوجه، الآخر، يحمل ترفعًا وكبرياء ينبع فى الأساس الأول من انتمائها للغرب (المتحضر) فى مواجهة الشـرق (المتخلف)، كذلك لا نخطئ شـيئا ليس بالقليل من هذا التعصب الـذى يحمل نقيضه (الدين الآخر) ويفسـر به كثيرًا مـن ردود أفعاله، وربما كان مرجعه أيضًا، عدم إحساسها بالقدر الكافى بثقافة البلد الذى تنتمى إليه ومكانته الحضارية من كمون بعيد فى الشـخصية الأوروبية يقبع فى العقل الباطن ولا يفارقها، وإن ظهر من آن إلى آخر فى التصرفات العامة..

كان الأمر جنونًا

فلنهبـط أكثـر إلى بعض ملامح هذا الوجه – الآخر، قبل أن نحاول الاسـتطراد أكثر فى هذه التأملات..

والهبوط يستدعى منا التمهل عبر عديد من المشاهد..

ربما كان الموقف الأول فى حياة طه وسوزان هو المشهد الذى ينبئ عما وراءه، وهو المشهد الذى بـدأ بتعرف أحدهما إلى الآخر، ولدينا فى الجـزء الثالث من الأيام وصفًا يفيض بالرقة والعذوبة يفصِّله طه حسـين فى لقائه أول الأمر بالفتاة الفرنسية، وهو لا يكاد يغرق كثيرًا فى هذه المشاعر (اللذيذة) حتى تواتيه شجاعته فيصارحها بالحب فتجيبه:

– لكننى لا أحبك

وعلى سـبيل المثال، فقد كتب إلى طه حسـين الرئيس السـنغالى سـنجور وسـكايف ولالاند وأراجـون وأندريـه جيد وكازانوفا وبلاشـير وغيرهم كثيرون.. ومع ذلك فـإن النصوص الأصلية للرسـائل، وما أكثرها، لا نعرف عنها شيئا، ويصف مؤنس طه حسين (الابن) هنا الطريقة التى كانت تسـتولى بها سـوزان على رسـائل طه حسين فيقول: إنها كانت «تسـتحوذ على رسائله الخاصة والأدبية بوجه عام مثل رسائل (لوى ماسينون) و (أندرى جيد..).

obeikandi.com

ومازلنا حتى الآن لا نعرف أين هى على الرغم من أهميتها فى السياق الفكرى والسياسى والأدبى..

وربما لهذا، حين ذهبت إلى زوج الابنة د. محمد حسين الزيات وطلبت منه بعض كتابات طه حسين التى لم تنشر أو مذكراته (علمتُ من بعض تلامذته أن له مذكرات محفوظة)، فأجابنى د. الزيات بأنه لا يوجد لديه شىء منها، على رغم أنه سلمنى فى هذا الوقت جزءًا لم يكن قد نشر بعد من رواية طه حسين (ما وراء النهر).

ومتابعتى لكتابات طه حسين وحياته لسنوات تجعلنى أجزم أن هناك العديد من الرسائل المفقودة أو المختفية، أو عديدا من الكتابات الأدبية والفكرية التى لم تنشر حتى اليوم، استحوذت على أغلبها السيدة سوزان، واختفت فى مكان مجهول..

وتتعدد صور الهيمنة وتمتد إلى عديد من النواحى..

كنائس الأندلس

على أن الوجه الجامد، الذى يحمل مسحة واضحة من التعصب والتعالى الشديدين يطل علينا فى رحلات طه حسين دائمًا مع زوجته، ومن أكثر ما يدهشنا، فى هذا، أن رحلة طه وسوزان عام ١٩٤٨ إلى إسبانيا بدت تصبغ بصبغة غربية تمامًا، أو غربية يمتزج فيها الغرب بالتعصب.. فمن الغريب أن تقضى سوزان طه حسين فى ربوع الأندلس فترة طويلة، وتهبط إلى غرناطة، وتتعرف على قصر الحمراء وتقترب من أشبيلية.. إلى غير ذلك من الرموز التى ما زالت تحمل تاريخًا إسلاميًا صافيًا.

إن المسافر إلى هذه المناطق التى كان الإسلام فيها مزدهرًا لمئات السنين لا يمكن أن يغفل هذه الآثار الإسلامية الشامخة، ولسنا نأتى بجديد إذا قلنا: إن الآثار الإسلامية فى إسبانيا الآن من الكثرة والغزارة بحيث تعد السياحة إلى هذه الآثار هى المورد الأول للدولة.. ومع ذلك، فإن سوزان لا تندهش لعظمة قصر الحمراء، ولا لقمة البناء فى آلاف المساجد والحمامات والحارات والتكايا الإسلامية التى مازالت تشهد بعظمة العرب..

وسافرت سوزان أكثر من مرة إلى إسبانيا، وشهدت الأندلس الإسلامية، ومع ذلك، لم تذكر كلمة واحدة عن ذلك، إنها تتحدث عن أشجار السرو.. تلك الأشجار الخارقة، والمحامى الغرناطى، والمطاعم، والفراولة، وثقافة المضيف، ورقص الفلامنكو..

الأكثر من ذلك، أن طه حسين دشَّن هناك فى عام ١٩٥٠ معهد الدراسات الإسلامية الذى لم تذكره قط، إلا فى موضع واحد، هو الموضع الذى قلّد فيه وزير التربية الإسبانى طه حسين (الوشاح الأكبر لصليب ألفونس العاشر).

ونستطيع أن نذكر عشرات الأمثلة فى ذكرياتها التى كتبتها عن طه حسين بعد رحيله، مما يشير إلى أن زوجة عميد الأدب العربى لم تكن تدرك شيئا عن هذا الأدب، أو الأصح، كانت تريد أن تدرك منه ما يوظف أفكارها فى النسق الذى جاءت من أجله، ومن هنا، لم توجد فى حياة طه حسين إلا من خلال الإحساس (بالدّيْن) الذى فرض عليه أثناء إقامته فى فرنسا، والذى يطوق عنقه إلى درجة الاختناق.

هذه.. المرأة

ويؤكد الذين عرفوا سوزان أنها كانت معتزة بعقيدتها إلى حد بعيد، وقد راح الأب قنواتى فى أحد المرات التى وجد الجزع فيها على وجه سوزان، يقول لها، مقويًا من عزيمتها:

– أنت مسيحية..

على أنه أن يكن الإنسان ذا عقيدة متينة (أيا كانت ديانته) فهذا شىء مستحب، ويحاط بالاحترام والتقدير، أما أن تختلط لديه الرؤية بين عقيدة وجنس وحضارة.. وما إلى ذلك مما يرقى به إلى درجة التعالى، فإن ذلك، فى حد ذاته ليس من السمات الأولى فى أية عقيدة..

ومع أن الأمثلة التى تبرهن على تعالى السيدة سوزان وتصلبها لا يمكن حصرها، فسوف نكتفى بهذا المشهد الأخير، الذى يؤكد، أن لهذه السيدة وجهًا آخر لا نعرفه..

وهذا المشهد يحكيه لنا مؤنس – الابن – عن أمه، فيقول:

(.. يوم تزوجت ابنتى، قبل عشر سنوات من شاب يابانى، جاءت إلىّ من القاهرة لتشاركنى بالفرح.

وسألها أصدقائى، وأجابت:

– ألا يصدمك أن تتزوج حفيدتك من شاب يابانى وبوذى، قالت بسرعة:

– لا

وعاد المتحدث يسأل من جديد:

– ماذا؟

وعاد صوت سوزان مرة أخرى بحدة:

– طالما جدتها، قبل ستين عامًا، تزوجت شابًا عربيًّا مسلمًا، وهى الفرنسية الكاثوليكية..

ولا نحتاج إلى تعليق..

وعلى ذلك، فإن لكل شىء وجهين، أحدهما مشرق، والآخر، مظلم..

وفى حالة سوزان، يعرف الجميع الوجه المشرق..

أما الوجه الآخر، المظلم، فلا يعرفه أحد..

إن الوجه الآخر من القمر: مظلم.. أليس كذلك؟

obeikandi.com

مراجع

– سوزان طه حسين، ترجمة بدر الدين عرودكى، دار المعارف ١٩٨٢.

– حسونة المصباحى – الشرق الأوسط – ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٣

– لمصطفى عبد الغنى :

- طه حسين والسياسة، دار المستقبل، القاهرة، ١٩٧٦.
- تحولات طه حسين، هيئة الكتاب، جـ ٢، القاهرة، ١٩٩٠.
- طه حسين وثورة يوليو، جـ ٣، القاهرة، ١٩٨٩.
- المفكر والأمير، العلاقة بين طه حسين والسلطة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
- طه حسين.. الذى لا يعرفه أحد، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٩، القاهرة.

– أيضا يمكن العود إلى عدة مراجع على «الويب» :

- http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?t= 1200
- http://thaqafa.sakhr.com/motanaby/manaheg/ 0004.asp
- http://www.yabeyrouth.com/pages/index 808.htm
- http://www.annaharonline.com/ IGTIRAB/ IG2001DEC10.HTM
- http://www.koolpages.com/almalaika/tahahasin.html
- http://www.adabwafan.com/browse/ entity.asp?id= 634
- http://forums.cjb.net/gma7 nehaitham-post-1118.html
- http://www.alriyadh.com/ 200508/ 04//article 54736.html